الولادة المجهضة لنهضة الشرق

الحلقة الأولى

(فساد البذور)

العوَدانية الارتكاسية وديمومة الزمن الرديء

لقد استدار الزمن العربي *والإسلامي* وأتم دورة كاملة خلال القرن العشرين الذي ودعناه ليعود القهقرى إلى نقطة الصفر المطلق للجمود التي انطلق منها مع بداية ذات القرن، وهي عين النقطة الصفرية التي كانت محاولة محمد علي باشا (1805 م - 1849 م) 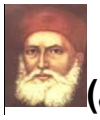 التحديثية لمصر انتهت إليها على يد أحفاده في القرن التاسع عشر، كأن لم يغن العرب والمسلمون من تجاربهم المرة في الارتكاس والتخلف من قطمير.

والحصيلة النهائية لهذه الكبوات ورجوع الحافر على الحافر في كل مرة، تركة مزجاة من:

أ) الانطلاقات المعرفية المجهضة،

ب) والمحاولات الإصلاحية الفاشلة،

ت) والاستعارات المفهومية ، خارج سياقاتها التاريخية، وشروطها الاجتماعية والبيئية،

ث) واغترابات متنامية في الذات والوجدان والمكان والزمان، ....في سجل طويل من الكبوات، يرجع البصر منها كليلاً وحسيراً ومنهكاً لو حاول تتبعها باستقصاء من أولها إلى آخرها.

وهي حصيلة لازمت المنطقة منذ القرن الثامن الهجري، على ما شخص العلامة، المؤرخ، وأب علم الاجتماع: عبد الرحمن بن خلدون (732 هـ/1332 م - 808 هـ/1406 م) كشاهد قرن في كتابه: "المقدمة"، دون أن يأتي أحد من حجمه وفهمه، من بعده، ممن يعتد بقوله وعلمه، وإلى يوم الناس هذا، ليعيد النظر في أسباب هذا القدر المقدور ومسبباته، ويهتدي إلى مخرج منه.

ولو تجشم المرء عناء القيام بجرد استقصائي لكل العناوين والشعارات التي طوح بها فوق الأسطح من أطلقوا على أنفسهم زوراً وبهتاناً لقب النهضويين منذ مطلع القرن العشرين وإلى يومنا هذا، وحاول تلخيص الأفكار التي بثوها بين الناس، وما آلت إليه في كل مرة، واستعراض المنجزات، وتتبع أثرها على الأفراد والمجتمعات في إحداث التوجه المأمول، أو الإقلاع المنشود، أو التغيير المرتقب، لما وجد لها من أثر بعد عين!.

إذ الأفكار كانت تولد دوماً إما:

أ) ميِّتة أو:

ب) مجهضة، أو:

ت) تستعار ببغائية من الخارج بدون فهم، وبدون تمثل، وبدون تفكيك وإعادة صياغة، وبدون تبيئة، وبدون قدرة على إعادة التركيب والصياغة والبناء، أو:

ث) تتوخى إحياء أفكار ولى زمانها ولم تعد تصلح لزمنهم الحاضر،....

فكان مصيرها جميعها وبدون استثناء إلى مآلين لا ثالث لهما:

1) إما أن يلفظها الجهاز المناعي للأمة لغربتها عنه،

2) أو تجهض تلقائياً بعد أن يلقح بها المجتمع ويحملها في رحمه لفترة، ك غيلان خِلْقِية غير قابلة للحياة.

ويكفينا هنا لوضع الأصبع على مكمن الداء، والوقوف على عمق الجرح الغائر في جسد الأمة، ولغرض التمثيل فقط، وليس الحصر، أن ندلل على هذا المنحى الارتكاسي العام بما ورد في نص محوري كتبه رائد ما يسمى ب "النهضة" (والنهضة مصطلح مبتذل استعاره ببغائية وتقرد من ادعوه لأنفسهم من أوروبا القرن السادس عشر، دون توفر أدنى شروطه فيهم أو في واقعهم) بدون منازع يومها وهو جمال الدين محمد بن صفدر الأفغاني الحُسَيني (1254 هـ/1838 م – 1315 هـ/1897 م) الذي جاء فيه[1]:

إن الأمة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد، ولا تستشار في مصالحها، ولا أثر لإرادتها في منافعها العمومية، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون، ومشيئته نظام – يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد- ، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد، ولا ينضبط لها سير فتعتورها السعادة والشقاء، ويتداولها العلم والجهل، ويتبادل عليها الغنى والفقر، وينتابها العز والذل... *وإن كان حاكمها جاهلاً سيئ الطبع، سافل الهمة، شرهاً مغتلماً جباناً، ضعيف الرأي، أحمق الجنان، خسيس النفس، معوج الطبيعة، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر، وجار في سلطته عن جادة العدل، وفتح أبواباً للعدوان، فيتغلب القوي على حقوق الضعيف، ويختل النظام، وتفسد الأخلاق، وتخفض الكلمة، ويغلب اليأس، فتمتد إليها أنظار الطامعين، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة.*	 جمال الدين الأفغاني

قلت:

[1] جمال الدين الأفغاني: "الأعمال الكاملة"، الجزء الثاني، الكتابات السياسية، ص. 329، طبعة 1981، بعناية محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

هذا النص، وعلى قدمه الزمني، لا زال راهنيا وإلى ما شاء الله في المستقبل المنظور، خصوصاً وأن القرن الذي ودعناه أنتج طواغيت ومستبدين اجتمعت فيهم كل خصال السفالة، والنذالة، والخسة، واعوجاج الطبيعة،....إلخ.، التي سردها الأفغاني، بل أنضاف إليها في بعضهم من خصال السوء ما يفوق بكثير كل هذه الأوصاف المخزية، ويندى لها جبين كل إنسان حر.

وهي وصفة سيرددها على أسماع الشرق السوري عبد الرحمن الكواكبي (1854 م - 1902 م) في كتابه: "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، الذي نشره سنة 1900 م:

المستبد يتحكم في شؤون الناس وبإرادتهم ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم. ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبتها.....

الأراضي، والمعادن، والأنهر، والسواحل، والقلاع، والمعابد، والأساطيل، والمعدات.... إلخ.، مما هو لازم للجميع، ويجب أن تبقى الحقوق فيه محفوظة للجميع على التساوي والشيوع أو موزعة على الفصاءل والبلدان والصفوف والأديان بنسبة عادلة.

ومجرد إنتاج القرن لمثل هذه الغيلان السياسية لدليل قاطع على فشل النهضة، من هذا الجانب السياسي الذي شخصه الأفغاني، بل وعلى ارتكاسها نحو الأسوأ، بما لم يكن في حسبانه وجيله.

هذا الفشل على الصعيد السياسي ترتبت عنه بالضرورة، وكما كان منتظراً، وكتحصيل حاصل، ارتكاسات وتصدعات وشروخ هيكلية مست كل مرافق حياة المجتمع.

وقد ظل سؤال اللاحقين، عندما لا حظوا هذا الفشل المريع والمقيم، وأعيتهم الحيل في تربيع دائرته، مسكوناً بهاجس البحث عن كيفية الحؤول دون انبعاث مثل هذه الغيلان السياسية من رمادها في المستقبل، التي جعلت المنطقة لا تنبت سوى هذا النوع من الحكام بالرغم من تغير الأوطان والظروف، وكأنها سنة من سنن الكون خاصة بهذه المنطقة، دون سواها، لا تتغير ولا تتبدل؟

وغاب عنهم، وكلهم خضعوا لغسيل دماغ متقدم في المدرسة العبدوية، نسبة إلى الشيخ محمد عبده (ت:

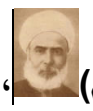

1905 م)، التي شكلت وصاغت تفكيرهم جميعاً، أن السبب يكمن بالأساس فيهم، لشربهم شرب الهيم من هذه المنظومة الفكرية "العبدوية ـ الأفغانية" العقيمة بالذات، التي استلهم عبده مبادئها وأصولها من شيخه

الأفغاني، والتي لم يزد الأخير على أن أخذها بالحرف من المنظومة الفكرية ل "الأصولية الشيعية الجعفرية"،

بنكهتها المعتزلية الطاغية الممزوجة بالفلسفة، والتي سيكون أثرها المباشر على الأرض: تحويل الجامع الأزهر من خانقاه لتفريخ المتصوفة المتفيقهين العاجزين عن تدبير دنياهم ووصلها بآخرتهم إلى "حوزة شيعية" تخرج المهرجين السفسطائيين، ورهيفي التدين، بله والزنادقة المجاهرين، المتعالمين ب الفلسفة ومنطق الإغريق الذين أكل عليهما الدهر وشرب، وإهمال مشين للأصلين:

أ) القرآن الكريم،

ب) الحديث النبوي الشريف، الدرع الواقي ضد البدع والتخريف،

ولم يكن بوسع هذه المنظومة الفكرية التلفيقية العقيمة، التي أضافت إلى بلية التصوف الضاربة الجذور في مناهج الأزهر، الفلسفة والمنطق الإغريقيين، رفع تحديات العصر، أو التواصل مع الحضارة الغربية القائمة، مع أنه كان من المفروض، أن تظل الركائز الثلاثة الدخيلة على المرجعية:

1) التصوف،

2) والفلسفة،

3) والمنطق الإغريقي،

مجنونة مسكن في ديار الإسلام، بعد النقد الكاسح الذي وجهه لهذا الكشكول من الأفكار: إمام الأئمة غير مدفوع، أبو العباس: احمد بن عبد الحليم بن تيمية (661 هـ/1263 هـ - 728 هـ/ 1328 م)، ثلاثة قرون من قبل، ولسبب أضافي وجيه، وهو أن الحضارة الغربية تأسست على أنقاض الفلسفة الأرسطية ومنطقها، وأحلت محلهما:

أ) الأورجانون الجديد ل فرانسيس بيكون (*Francis Bacon*) (1561 - 1628) وعنوانه الفرعي: "إرشادات في تفسير الطبيعة" (*Directions concerning the interpretation of Nature*)[2]، حيث ينتقد فيه منهج أرسطو ومنطقه. بل هو لا يفرق بين السفسطائيين من البلاغيين أمثال: بروتاجوراس (*Protagoras*) (490 ق.م - 420 ق.م) 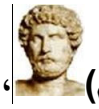 ، وجورجياس (*Gorgias*) (485 - 480 ق.م - ما بعد 427 ق.م) ، وهيبياس (*Hippias*) (465 ق.م - 396 ق.م) 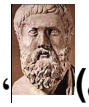 ...من المرتزقة الجوالين الذين كانوا يعرضون فلسفتهم ويتقاضون عليها أجراً، وبين الفلاسفة المقيمين وأصحاب المدارس مثل: سقراط ، وأفلاطون (*Plato*) (427 ق.م -

[2] الأورجانون الجديد هو الجزء الثاني ضمن خطاطة عامة من ستة أجزاء حملت عنوان: "الإحياء العظيم" (*Instauratio Magna*)

348 ق.م) 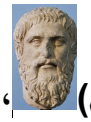 ، وأرسطو (*Aristotle*) (384 ق.م - 322 ق.م) ، وزينون الإيلي (*Zeno of Elea*) (490 ق.م - 430 ق.م) ،... واصفاً فلسفتهم جميعاً بكونها:

حديث عجائز عاطلين إلى شبان جاهلين

قلت:

وهو ما ينطبق بالحرف كوصف على أصحاب الحوزة.

ويقول بيكون بأن ما يميز اليونانيين هو:

أنهم يشتركون مع الأطفال في الميل إلى الكلام والعجز عن الإنجاب المثمر، حيث يغلب على فلسفتهم الاعتناء بالألفاظ التي لا تثمر أية نتائج[3]

ونجد الكثير من الصدى في نقد بيكون للمنطق اليوناني، لما سبق وأن وجهه ابن تيمية لهذا المنطق من نقد.

فهو يقول بأن الأداة الرئيسية التي استعان بها قدماء الفلاسفة للوصول إلى نظرياتهم الباطلة، هي المنطق، وبأن المنطق القديم كان يقوم على القياس بالأساس. وكان القياس يتألف من قضايا، والقضايا من ألفاظ. وكانت الألفاظ تعبر إما عن أفكار أو تصورات في الذهن. فإذا ما كانت المعاني والأفكار الرئيسية مختلطة في الذهن، فلا شك أن كل ما بني فوقها سيكون خاطئا وعلى غير أساس.
فعملية التجريد التي تنطلق من مثل هذه الألفاظ التي تصبح حدوداً في قضايا القياس تجعلنا ننظر بريبة إلى هذا القياس.

أضف إلى ذلك أن القياس نفسه، حتى لو كان صحيحاً من الوجهة الصورية المحضة، فهو يظل عقيماً، لأنه لا يزيد على أن يوطد دعائم الأفكار الموجودة من قبل، والتي قد تكون باطلة بدورها. وهو ما يحول دون البحث عن الحقيقة.

وما القياس في آخر المطاف سوى طريقة لإقناع الخصوم وقهرهم من خلال الحجج اللفظية لا غير.

قلت:

وهو عين النقد الذي سيوجهه بيكون إلى المدرسيين المسيحيين في القرون الوسطى، وهم نظراء طبق الأصل، للمتفلسفة المحسوبين على الإسلام.

[3] أنظر: "الأورجانون الجديد" (1: 71).

ب) العلم التجريبي بكل روافده. وقد كتب بيكون ملحقاً لـالأورجانون الجديد حمل العنوان اللاتيني:

"المدخل إلى تاريخ طبيعي وتجريبي" (*Parasceve ad Historiam naturalem et Experimentalrm*)

وقد قال فيه بحماس مفرط:

ينبغي أن يؤكد هنا تأكيدا قاطعاً مرة أخرى ما سبق وأن قلناه في مناسبات متعددة، أنه لو اجتمعت العقول في كل الأزمنة أو شرعت في التجمع من الآن فصاعداً، ولو عكف البشر جميعاً أو شرعوا في العكوف على الفلسفة من الآن فصاعداً، ولم تعد الأرض كلها سوى معاهد وكليات ومدارس لأهل العلم، فمحال أن يتحقق الآن أو في المستقبل أي تقدم جدير بالبشر في الفلسفة أو العلوم، دون تاريخ طبيعي وتجريبي كذلك الذي ندعو إليه.

هذا، في حين أنه لو جمع تاريخ كهذا ونظم، مع إضافة ما سيكون ضرورياً خلال عملية التفسير من تجارب كاشفة ومساعدة، فإن بحث الطبيعة والعلوم جميعاً لن يقتضي عمل أكثر من سنوات قلائل.....،

وإذن فلا مفر من تنفيذ هذه الخطة أو التخلي عن الموضوع برمته.

قلت:

الأورجانون الجديد، و العلم التجريبي المتأسس عليه، الذين لا قبل لا ل الأفغاني ولا ل مريده عبده بهما، لضعف الطالب والمطلوب فيهما معاً، لتخلف معارفهما عما جد في عصرهما من علوم، وللذبابية البنيوية التي ورثاها معاً وظل يلقنها كل سابق منهم لكل لاحق، خارج متطلبات العصر، متجاهلين أن الله قد حرم في الأزل على أي كهوفي (سورة الكهف) أن يبعث من قبره ويستأنف الحياة مجدداً خارج عصره.

قلت:

ومما ساعد على إحداث هذه الانقلابية الشيعية بداخل الأزهر، اغتراب وانفصام النخبة التي تكونت على أيدي الأفغاني وعبده، ثم ما كان من تبوئ الاستعمار، ثم الحكام التابعين له، لهم، رغم أنف الأمة، لزمام الأمور إبان الاستقلال.

ومادامت الأفكار لا تولد في فراغ، ولا أنها قادرة على النمو والنضج ما لم يتوفر لها حد أدنى من الحرية، فلا عجب، ونوع حكام المنطقة بالسوء الذي وصفهم به الأفغاني وزيادة، أن تبقى الأفكار حبيسة في أدمغة أصحابها، أو تولد ميتة، أو تصادر في المهد، لتصبح نسياً منسياً كأن لم ينبس بها أحد ولا أنها خطرت يوماً ببال مفكر أو منظر قط!.

وبالتالي، لا يتم الاستفادة منها لإعادة تقويم مسار الأمة، حيث قلما كان يحصل منها ومن جماع أمثالها في ميادين أخرى ذلك الحد الأدنى من التراكم المعرفي الضروري، الذي لا إقلاع حضاري بدونه.

وعلى هذه الخلفية الاجتماعية الثابتة، فليس من قبيل الصدف أن يعيد العرب، وغالبيتهم المطلقة مكونة من المسلمين والمسيحيين، الذين ينتمون إلى منظومة دينية توحيدية واحدة، وأرومة واحدة، ويتكلمون لغة واحدة، .... إنتاج ذواتهم دوماً على هذه الوصفة الانتحارية الأفغانية البئيسة، قدراً مقدوراً ولا فكاك، بالرغم من كون إرثهم الديني المشترك يحثهم على تغيير أنفسهم قبل أن تتغير أحوالهم!؟

ولن يحتاج المرء أن يكون عبقرياً ولا نابغة ليدرك أن مفارقة بهذا الحجم وعلى هذا المستوى البنيوي الجبري، تستجدي تشخيصاً معمقاً للداء وتحليلاً تفصيلياً واستقصائياً للأسباب والعوارض المولدة له قبل التفكير في أي علاج أو دواء.

فإن أخذنا بهذه البديهية وقمنا بجرد تحليلي موضوعي للسير الذاتية لكل من وسموهم ب رواد النهضة، فسنكتشف بذهول أنهم جميعهم وبدون استثناء، كانوا يعانون:

أ) من مركبات نقص في تكوينهم،

ب) ومن انفصام تناذري في شخصياتهم،

ت) ومن قابلية مذهلة للذوبان في الغير،

وهي شيم وأخلاق واستعدادات نفسية لا تسعف مطلقاً لبلوغ المطامح الكبرى التي طوحوا بأنهم يرومون تحقيقها، أو الغايات التي يريدون الوصول إليها!.

منها على سبيل الحصر وليس الاستقصاء:

1) أن غالبيتهم كانوا مستلبين ورهيفي التدين فهماً وممارسة، ولم يكونوا أصلاء بالقدر الكافي، كي يعصموا أنفسهم من السقوط في شرك الانبهار بالوافد، أو التماهي معه أو الذوبان فيه، حال ما حصل لجميعهم وبدون استثناء،

2) ولا كانوا مُحَيَّنين معرفياً بالقدر الكافي، وملمين بمعارف وعلوم عصرهم النافعة كأنداد ومشاركين، كما تتطلب سنن الاستخلاف، التي لا تتغير ولا تتبدل، وليس كذباب شافط لما ينفع ولما لا ينفع، ولا كقردة بهلوانيين في سيرك المعرفة، ولا كببغاوات شاذية بأغاني الغير، حتى يتكيفوا معها ويدخلوا في حوار حضاري مفتوح وغير متشنج مع الآخر، ليبدعوا بموازاته بدائل خاصة بهم وبظرفهم وواقعهم وتراثهم، بدل محاكاته فيما لا تقليد فيه! حال ما نرى من إرهاصات وبوادر لا تخطئها العين، لأهلية الصين والهند في عصرنا، لتبوء مثل هذه المكانة في العقود القليلة القادمة، لاستخلاف الغرب وأخذ مكانته الريادية، إلا أن يشاء الله شيئاً، واستحالة ذلك على المسلمين في المستقبل المنظور، لتشرذمهم وتخلفهم المشين على كل الصعد، ما لم يعوا مأزقهم ويشمروا عن ساعد الجد، للخروج من ورطتهم التاريخية، بتمثل وفهم وهضم

المقومات الموضوعية للحضارة القائمة، والتتلمذ لها فيما ينفع، ونبذ كل نقائضها،... بغية التعلم منها واستعداداً لتجاوزها.

ولا استخلاف ممكن من غير هذا الوعي وهذا التمثل.

ـ فالإغريق ما كان لهم أن يسودوا أيام الإسكندر المقدوني ، لولا أن سبق لهم تمثل حضارة الشرق من خلال التتلمذ لها لقرون، وبالخدمة العسكرية كمرتزقة في جيوشها لعقود، قبل أن ينقضوا عليها ويخلفوها، لما أصابها الوهن.

ـ والمسلمون بدورهم، لم يسودوا حتى استوعبوا حضارات الروم، وفارس، والهند، والصين، وتمثلوها، بالرغم من سبق الوعد لهم بالاستخلاف، وهم بضعة أنفار مستضعفين حول النبي ρ يتخطفهم الناس (الآية 55 من سورة النور):

[illegible] (55)

ـ والأوروبيون بدورهم فعلوا نفس الشيء بالنسبة لحضارة الإسلام، درسا، وترجمة، واحتكاكاً لأزيد من خمسة قرون،... قبل أن تنهار الحضارة الإسلامية أمامهم، ويحلوا محلها بحسب ما قدر في الأزل،

والصين والهند، في أيامنا على الأبواب، يعرفون من حضارة الغرب علماً وممارسة، ما يعرف الغرب نفسه، وهاهما في طريقهما إلى جني الثمار.

إنها السنن.

3) ولا كان من بينهم علماء مخضرمين، ممن وعوا ظرفهم ومتطلبات عصرهم، وأدركوا أن الفقيه التقليدي القديم انقضى عمره الافتراضي منذ مدة، ولم يعد بذي غنية في حقله، بعد أن ظل جلباب الفقه ينكمش عليه باستمرار إلى أن قيد رجليه فلم تعودا قادرتين على الحراك والسير، وأن على النابغين من بين هؤلاء المخضرمين، ممن وزقوا الفهم الديني الضروري، ومن المُحينين بالخبرة العلمية التي يعج بها عصرهم، القادرين على بناء فروض عمل نظرية مستقاة من الأصلين وحقائق الكون، وقابلة لرائزية التحقق الميداني من حيث الصلاحية أو الفساد، بتجارب ميدانية متواصلة ودؤوبة على الأرض، كمجتهدين ومجربين، على تنزيل نصوص الأصلين على حقولهم المتعددة، كأئمة جدد من أئمة الإسلام لا يشق لهم غبار، أخذ مكان هذا الفقيه المترهل، شرعاً، وفرضاً من فروض العين، وليس الكفاية،

4) ولا كانوا من أصحاب الخبرات الإدارية والتسييرية على الصعد التنظيمية، وهي نوع مؤهلات لا مناص منها لمن يتوخى التصدي لنوع التحديات التي تجشموا عناء إقحام أنفسهم فيها.

5) ولا كانوا من المنظرين الاجتماعيين، ممن أشربوا المنظورية الإسلامية إلى أن اختلطت بلحمهم ودمهم وسارت لهم سجية وطبع، وممن تخصصوا في دراسة ظواهر مجتمعاتهم ميدانياً وتعاملوا مع المعطيات السكانية بدراية وبعد نظر، ليبنوا فوقها نظرياتهم المستقاة من الأصلين في الهندسة الاجتماعية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو التنموية،... دون أن يقعوا في شراك التبعية البليدة، والتهريج السياسي، والشعبوية الفجة، والغوغائية المتفلتة.

لذلك لم يكن غريباً، بحسب السنن الكونية التي لا تتغير، وواقعهم بهذا السوء، أن يفشلوا وأن لا يحصدوا سوى الفشل، جزاءاً وفاقاً، لأن غالبية الرواد كانوا إما:

أ) من الأزهريين المحنطين الذين تجاوزهم نبض العصر وركبه وخرجوا منه جملة وتفصيلاً ولقرون، حال رائدهم في ذلك والذي سبقهم بقرن كامل، الغر المفتون:

- رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي (1216 هـ/1801 م – 1290 هـ/1873 م) **، تلميذ شيخ الأزهر المغربي الأصل المخضرم المعارف: حسن العطار (1180 هـ/1766 م - 1250 هـ/1835 م)[4]، الذي سينبهر بباريس بعد أن أقام فيها لخمس سنين عجاف، خلال الفترة (1826 - 1831)، تعرف فيها على المستشرقين الفرنسيين:**

أ) أنطوان إسحاق البارون سيلفيستر ده ساسي (1758 - 1838) (*Antoine Isaac, Baron Sylvester de Sacy*) **، وله رسائل معه،**

ب) ومدرس اللغة العربية في الكوليج الأمبراطوري: أرمان بيير كوسان ده بيرسوفال (*Armand Pierre Caussin de Perceval*) (1795 - 1871)

مترجم كباب: "ألف ليلة وليلة" إلى اللغة الفرنسية، وله رسائل معه،

---

[4] لم يأنف من الاستفادة من خبرة العلماء الذين اصطحبهم نابليون بونابارت معه في حملته على مصر، وتوسما للخير في تلميذه الطهطاوي، بوأه إماما للمبتعثين إلى باريس.

وعلى الأفكار السياسية لكل من:

أ) جـان جـاك روسـو (*Jean Jacque Rousseau*) (1712 - 1788) 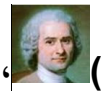 ، حيث سيترجم له كتاب: "العقد الاجتماعي"،

ب) ومنتيســكيو (*Charles-Louis de Montesquieu*) (*Secondat,* 1689 - 1755) ، حيـث سـيترجم لـه: "روح القـوانين"، و"تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم، ولم يطبعا.

ت) والمهـرج الـديماغوجي فـولتير (*Voltaire, François Marie Arouet*) (1694 - 1778) 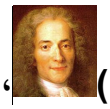 ،.....

ليعود إلى البلد محملاً ببضاعة مزجاة من الأفكار، أخذ عنها لمحة، ولم يكن تمكنه من اللغة الفرنسية، ولا تكوينه ولا ملكاته العقلية، لتسعفه في فهم ألأسس النظرية، لما كان ينقل أو في هضم مسائله أو التعمق في خباياه.

وأنـى لـه ذلـك!، والمنشـأ بـدوي مـن صـعيد مصـر، والتكـوين تقليـدي لا يسـعف، والعوالم مختلفة تفصل بينها مسافات مفهومية برزخية، ما كان بوسع عربة معارفه القروسطية المتجاوزة التي صدئت تروسها و توقفت عن الدوران لقرون، اختزالها وطيها طياً على أمل اللحاق بالغرب، فاكتفى من الغنيمة بالإياب وسجل انبهاره وغربته الزمانية والمكانية في كتابه "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز"، خاطاً بذلك مثالاً لذبابيين لا حقين، سيقلدونه في ذات المسعى دون إضافات تذكر.

من مؤلفاته:

أ) "القول السديد في الاجتهاد والتجديد"، تعرض فيه للاجتهاد في الإسلام بحسب ما استقر عند الفقهاء المتأخرين المدغولين بالمنطق الأرسطي، بدون جديد،

ب) و"المرشد الأمين في تربية البنات والبنين" وعرض فيه أفكاره التربوية، وآراؤه في المساواة والحرية، والوطن والوطنية، تأثراً بما شاهد في باريس، ونشر سنة وفاته 1290 هـ/1873 م،

ت) و"أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل" يعرض فيه لتاريخ مصر القديمة وحتى الفتح الإسلامي، ونشر في حياته سنة: 1285 هـ/ 1868 م

ث) و"التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية" يشرح فيه مهام اللغة العصرية،

ج) و"مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية" وقد خصصه للحديث عن العمران والتمدن وعلم الاجتماع، وطبع سنة 1286 هـ/1868 م.

قلت:

وتظهر ميولاته الفكرية وانطباعاته من خلال ما اختار أن يترجم من أمهات الكتب الفرنسية إلى اللغة العربية، مثل:

1) أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الإفرنج أصلاً لأحكامهم، ولم يطبع،
2) وكتاب قلائد الفلاسفة، ونشر سنة 1836 م،
3) والقانون المدني الفرنسي، نشره سنة 1866 م،
4) وقانون التجارة الفرنسي، ونشره سنة 1868 م،
5) والدستور الفرنسي، ونشره ضمن كتابه: "تلخيص الإبريز"
6) ونبذة من الميثولوجيا،
7) و"تراريخ القدماء المصريين"، نشره سنة 1838 م
8) ومبادئ الهندسة، نشره سنة 1854 م
9) والمنطق،
10) والمعادن،
11) و"الجغرافيا" وترجم منها: "مجمل الجغرافيا العالمية أو وصف كل أجزاء العالم" (*Précis de géographie Universelle ou description de toutes les parties du Monde*)

ل كونراد مالط ـ برون (*Conrad Malte-Brun*) (1775 - 1826) ونشر منه أربع مجلدات من سبعة،

12) و"مواقع الأفلاك في وقائع تليماك" (*Les aventures de Télémaque*)،: وهو ترجمة لقصة ألفها القس والكاتب واللاهوتي الفرنسي: فرانسوى ده سالينياك الملقب: فيلينون (*François de Salignac de la Mothe -Fénelon*) (1651 م - 1715 م)

ينتقد فيها سياسة الملك الفرنسي لويس الرابع عشر (1638 م - 1715 م)

.

13) و"قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر" وهو ترجمة لكتاب المؤرخ الفرنسي: جورج بيرنار ديبنج (1784 م - 1853 م): (*Aperçu historique sur les moeurs et coutumes des nations*).

قلت:

ليلاحظ القارئ المخضرم مدى التفاوت بين الترجمة العربية للعنوان وأصله الفرنسي!!! وهو ما ينبئ عن نوع الترجمة ومدى دقتها في ملامسة موضوعاتها!. وهذه الخيانة في الترجمة منتظرة من طرف من لا يملك زمامها بعد، حال: الطهطاوي.

14) و قصة "بول وفيرجيني"، (*Paul et Virginie*) للكاتب الفرنسي جاك هنري بيرناردان (*Jacques-Henri Bernardin de Saint-Pierre*) (1737 - 1814)

: وهي تخص شابا: بول وشابة: فيرجيني ولدا في جزيرة موريس لوالدتين قدمتا من فرنسا إلى الجزيرة لتخفيا عار سفاحيهما، فشب الطفل والطفلة كأخوين،..

15) و"خرافات لافونطين"، (*Les Fables de Lafontaine*) للكاتب الفرنسي: جان ده لافونطين (1621 - 1695)

16) وبعض الكوميديات المسرحية (ملاهي) للمؤلف والممثل المسرحي الفرنسي: موليير (*Jean-Baptiste Poquelin, dit Molière*) (1622 م - 1673 م) ، وسيترجم عثمان جلال (1829 - 1898) بعضها إلى اللغة العامية الدارجة.

17) ونبذ من سير كل من:

أ) الإسكندر المقدوني (356 ق.م 323 ق.م)

ب) وبطرس الأكبر (بطرس الأول الروسي) (1672 - 1725 م)،

ت) والإمبراطور شارل الخامس (*Charles Quint*) (1505 - 1558 م)

ث) وشارل الثاني عشر (*Charles VII of Sweden*) (1682 - 1718 م)

قلت:

واضح من هذه المؤلفات أن الطهطاوي ترجم ما وقعت عليه يده، أو زين له فيها: المشرفون على البعثة، أو أوعز له المستشرقون الفرنسيون بترجمته.

ولاتساع موضوعات هذه الكتب وتشعب تخصصاتها، فيبعد في المطلق أن يكون قد استوعب أياً منها، لقصر الفترة التي قضاها في باريس (5 سنوات) تعلم فيها اللغة الفرنسية التي أخذت من وقته ثلاث سنوات.

فهو بهذا المستوى لا يتجاوز فهمه للغة الفرنسية ما يفهمه تلميذ أجنبي حاصل على مستوى الشهادة الابتدائية فيها.

ولا ينتظر من مثله وبهذا المستوى المتدني أن يستوعب ما يترجم، ولن تتعدى ترجمته أن تكون ترجمة حرفية رديئة وخائنة، وقاصرة كل القصور عن الإحاطة بالمعاني الدقيقة لما يترجم.

ولصغر سنه عند ابتعاثه (25 سنة)، وتخلف عالمه، لقدومه من الصعيد المصري، وعدم نضجه فكرياً، ورهافة التدين التي اشتهر بها الأزهريون عامة بسبب جفاف ما كانوا يتلقونه من مواد في الأزهر، فلا يستبعد من مثله أن ينبهر بباريس وبمفاتنها على ما سرد بتفصيل في كتابه الإبريز.

فهو لهذه الاعتبارات الموضوعية القاهرة، لا ينتظر منه سوى أن يتأثر وينبهر بمفاتن باريس، حال ما نجد في وصفه لرقص الفرنسيات، وإمساك الراقصين الغرباء بأخصارهن،... وغيرها من المظاهر الاجتماعية الفرنسية المتهتكة، التي أتت بها الثورة الفرنسية وشجعت الناس عليها بالتنشئة، ضدا على الكنيسة وتعاليمها الأخلاقية العفيفة!

وحال:

ـ الشيخ محمد عبده بن حسين بن خير الله التركماني (1266 هـ/1849 م – 1323 هـ/1905 م) الذي بدأه مشواره العلمي، كأي طفل قروي في كتاب القرية، وأتم حفظ القرآن الكريم عند بلوغه سن الثالثة عشرة، ليرسله والده سنة 1862 إلى مسجد

الشيخ أحمد بدوي بطنطا 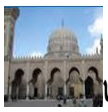 بغية تعلم التجويد، ليقضي سنتين في هذا التمرس على إضاعة العمر دون طائل !.

يقول محمد عبده:

وفي سنة 1281 هـ/ 1963 م بدأت بشرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الأحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم، وأن المدرسين كانوا يفاجئونا باصطلاحات نحوية وفقهية لا نفهمها، ولا عناية لهم بتفهيم معانيها، لمن لم يعرفها!.

قلت:

والأجرومية[5]: مقدمة في النحو تنسب للنحوي: أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي المشهور ب ابن آجروم (672 هـ - 723 هـ) ألفها بمكة المكرمة، ولها شروح كثيرة.

قلت:

ولا زال يدرس هذا المتن خارج العصر لطلبة الدراسات الدينية وإلى اليوم، وهو ما يزيد من تكلسهم وغربتهم بالنسبة لعصرهم!

والشيخ الكفراوي، نسبة إلى قرية: كفر الشيخ، هو: حسين بن علي الشافعي الأزهري (ت: 1203 هـ)، مفتي الشافعية في وقته.

ودليل انغلاق هذا الشرح، كغيره من الشروح، المحتاجة بدورها إلى شرح!، أنه يطبع عادة مع حواشي له حال:

أ) حاشية الشيخ: أحمد بن أحمد النجاري الدمياطي الحفناوي الشافعي الخلوتي المصيلحي الصوفي (ت: ما بعد سنة 1313 هـ) عليه وعنوانها مفصح عن مكنونها: "منحة الكريم الوهاب وفتح!!! أبواب النحو للطلاب"، وطبعت في بولاق سنة 1248 هـ،

ب) وحاشية الشيخ: إسماعيل بن موسى بن عثمان الحامدي المالكي (ت: 1316 هـ) وتعرف ب "الحامدي على الكفراوي"، وطبعت عدة طبعات منذ صدور الطبعة الأولى من المطبعة الكاستلية سنة 1280 هـ،...وغيرهما.

[5] هي مقدمة في النحو تنسب للنحوي: أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي المشهور بابن آجروم (672 هـ - 723 هـ) ألفها بمكة المكرمة، ولها شروح كثيرة.

وسيأتي في الحلقات القادمة، أن هذا الذي اشتكى منه عبده، هو عينه ما سيقوم به المنتسبون إليه فكرياً، حين سيدفعهم التعالم الواهم، إلى تدريس فلسفة العلوم، التي هي عليهم عمى، والتي ليست لهم بتخصص، إلى طلبة شعبتي: الفلسفة والآداب، وهم، كأساتذتهم المتعالمين بها عليهم، أبعد الناس عن فهم وتمثل ما يتداوله منظرو العلوم الصلبة في حقولهم!.

وهو ما أحدث عند الطالب عبده نفرة من الدروس لم يجد لها من مخرج سوى بالهروب والاختباء عند خاله لأمه، قبل أن يأتي أخوه بعد مضي ثلاثة أشهر، ويحاول إرجاعه مرغما إلى ما نفرت نفسه منه.

ولفرط كرهه لما يدرس بالجامع الأحمدي من دروس، فقد راودته فكرة الزواج، كحيلة إجرائية للتخلص منها، وتزوج فعلاً سنة 1283 هـ/ 1965، إلا أن والده أصر على إرجاعه إلى الدروس رغم أنفه.

وهو ما دفع بالشاب إلى الهروب ثانية والاختفاء عند خال والده: الشيخ درويش خضر، المنتسب للطريقة السنوسية.

وقد وجد عند الخال ما لم يجد عند أساتذته، حيث كان يشرح له الأخير ما أغلق عليه من الدروس التي لم يفهمها من قبل، بل نجح هذا الخال في إقناعه بمعاودة الدراسة في الجامع الأحمدي.

وعندما عاد إلى المسجد الأحمدي مجددا جلس في درسين:

أ) درس في أصول الفقه على المذهب المالكي، ويعتمد على الشرح الذي ألفه الشيخ عبد الباقي بن يوسف بن احمد: شهاب الدين بن محمد بن علوان الزرقاني المالكي (1020 هـ - 1099 هـ) على المقدمة العزية للجماعة الأزهرية، التي ألفها الفقيه المالكي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن خلف المنوفي المصري الشاذلي (857 هـ - 939 هـ). وهي مقدمة في أصول الفقه على المذهب المالكي، لا زال لها رواج بين أحافير المالكية في كل من السودان ومصر (صورة غلاف)

ب) ودرس في النحو يعتمد على شرح الشيخ الخالد الأزهري على الأجرومية.

والخالد الأزهري: هو أبو الوليد زين الدين، خالد بن عبد الله بن أبي بكر الجرجاوي الأزهري الشافعي (ت: 905 هـ) ويطلق على شرحه أيضاً اسم: العقد الجوهري.

قال صاحب "روضات الجنات" عن خالد الأزهري:

"وقد فاق على سائر من تقدمه في رشاقة التأليف! وطرافة التصنيف! وجودة البيان! وعذوبة اللسان! وصفاء القريحة!، إلا أنه قلما يوجد في كتبه من تحقيق جديد وتصرف من جهة نفسه تفيد.

قلت:

وعدم التصرف والتحقيق والاستقلال بالرأي ظلت سمة بارزة لكل هؤلاء المقلدة المجترين من الشراح والمُحشين، المنمقين للكلام، والمزخرفين للأقوال والمهتمين بالشكليات وليس المضامين.

ويكفي للوقوف على غثائية هذا التعليم الأحفوري، أن بين الشارح الخالد وابن آجروم قرنان، وبين عبده وابن آجروم ستة قرون عجاف، لم يجد فيها في حقل النحو جديد، ولا رفدت نهره اليابس والقاحل جداول محملة بسيل من وابل مطير أو غيث عميم قادر على إحياء الأرض بعد موتها، ولا أن من حفظ متن الآجرومية كان قادراً على الاسترسال في اللغة العربية بسليقة أصحابها دون الوقوع في الأخطاء النحوية والإعرابية والتصحيف المخل، حال ما عهدنا في كل المغاربة المتخرجين من القرويين، الذين كانوا يحفظون هذا المتن العقيم عن ظهر قلب!

ولم يكن حال المصريين ولا غيرهم بأحسن حال!

وسيتمكن عبده أخيراً، بعد أن عالجه خاله لوالده وأمده بمفاتيح فك شفرات ما أغلق عليه، من فهم ما يدرس هذه المرة!.

هذا الفهم لألغاز ولطلاسم ما كان يتداول من دروس في الأحمدية سيمكنه من ولوج الأزهر سنة 1282 هـ/ 1966.

يقول عبده عن خاله لوالده:

ولم أجد إماماً يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذاك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة!، ومن قيود التقليد!!! إلى إطلاق التوحيد!!!....وهو الذي رد لي ما كان من غريزتي وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي.[6]

ولا يخرج ما يقوله عبده هنا عن نفسه، وتجربته، وخاله، عما يقوله أي طرقي في عصره وغير عصره، منذ أن طرأ التصوف على الساحة الإسلامية منتصف القرن الثاني الهجري، مستلهما أفكاره من الرهبنة المسيحية!

{أنظر قصة طروء التصوف على الإسلام عند القاضي عياض في كتابه: "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" التي يرويها تلميذ مالك: عبد الله بن يوسف التنسي. وقد أجمع علماء المالكية على استهجان التصوف منذئذ، كما فعل: أبو بكر: محمد بن الوليد الطرطوشي في كتابه: "النهي عن الأغاني"، وأبو إسحاق الشاطبي في كتاب: "الاعتصام"، وغيرهما.

قلت:

[6] أنظر: رشيد رضا: "تاريخ الإمام" (1: 23).

أي: أن الطالب عبده، وعمره ناهز 17 سنة يومها، وهي السن التي ينهي فيها الطلبة في عصرنا المرحلة الثانوية، ليلجوا الجامعة، ظل ضعيف التكوين، مهزوز الشخصية، لا ثقة له في نفسه ولا عزم وبحاجة ماسة إلى طبيب نفسي يساعده ويأخذ بيده.

وهو ما وجده في هذه المرحلة من مشواره العلمي في خاله.

وأنى لطالب من عصر عبده، أن يفهم هذه الطلاسم التي تلقى عليه وهو لا يمتلك مفاتيح حل ما أغلق عليه من شفراتها!؟

لذلك لم يكن غريباً أن يتأزم الطالب عبده ويمرض نفسيا ويصاب بحالة من الكآبة والقنوط واليأس وكره الدروس والأساتيذ وكل ما يمت إليهم بصلة، وطلب السلامة في العزلة والتواري من الناس ومن هذا العالم الملغز وغير المفهوم.

وهو تناذر مرضي سيصاحبه حتى في دراساته بالأزهر.

وسيدرس على حصير الأزهر:

18) الفقه المالكي على الشيخ: أبي عبد الله: محمد بن أحمد بن محمد عليش المالكي المغربي (1217 هـ/ - 1299 هـ) شيخ المالكية ومفتيها في مصر في عصره، صاحب:

أ) كتاب: "فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك"، وهو عنوان نقائضي لأن مالك رحمه الله لم يكن يفتي في زمنه سوى بتنزيل الأصلين على نوازل مجتمعه، وتغليب عمل أهل المدينة على الأخبار التي يشك في صحتها، فيصيب في أغلب فتاواه، بينما انسدت الفتوى على المتأخرين، وأخطئوا فيها كيفما أفتوا، بسبب المناهج العقيمة التي استوردوها من الإغريق أو استحدثوها تأسياً بهم!!!.

ب) وكتاب: "القول المشرق على شرح إيساغوجي في المنطق"،..... وغيرها.

قلت:

وتعجب أن يؤلف الشيخ عليش، الفقيه!! كغيره من المجترين المتأخرين في سائر المذاهب الأخرى كتاب: "القول المشرق على شرح إيساغوجي في المنطق"!!!.

و"الإيساغوجي" أو "المدخل إلى كليات أرسطوطاليس (384 ق.م ت 322 ق.م) 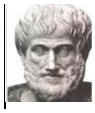 " كتاب في المنطق" ألفه الفيلسوف الأفلاطوني المحدث: الفينيقي المُهَيْلن: مالك الصوري (نسبة إلى مدينة صور اللبنانية) الشهير بلقب: فورفوريوس الصوري (*Porphyry of Tyre*) (234 - 305 م) ،

تلميذ الفيلسوف الرومي: أفلوطين (*Plotin*) (205 - 270 م) 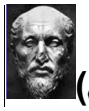 مؤسس المدرسة الأفلاطونية المحدثة.

وقد ألف فورفوريوس كتابه باللغة الإغريقية في صقلية أثناء تواجده بها خلال الفترة (268 م - 270 م)، لشرح خمسة ألفاظ ترد بكثرة في:"أورجانون أرسطو" وهي: الجنس (*genos*)، والنوع (*eidos*)، والفصل (*diaphora*)، والخاصة (*idion*)، والعرض (*sumbebecos*).

وكان الإيساغوجي من أوائل الكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية في القرن الثاني الهجري (التاسع الميلادي) عن ترجمة سريانية حصلت قرنين قبل ذلك.

ولم يقتنع المترجمون إلى العربية بهذه الترجمة، بل أعادوا ترجمة الكتاب مرة أخرى، وترجموا معه بعض شروحه القديمة مثل:

أ) شرح الأفلاطوني المحدث: "أمونيوس هرميا السكندري" (*Ammonius Hermiae*) (440 - 517 م)،

ب) و شرح تلميذه: الأسقف اليعقوبي الإسكندراني المصري المعروف ب" يحيى النحوي" (*Johannes Philopous*) (عاش في القرن السادس الميلادي)،

قلت:

وممن قام بتلخيصه في الفترة الإسلامية:

أ) الطبيب المسيحي النسطوري والمترجم: أبو زيد، حنين بن إسحاق العبادي (194 هـ/810 م - 260 هـ/873 م)

ب) والمتفلسف أبو يوسف: يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي (175 هـ/801 م - 256 هـ/873 م) (صورة متخيلة له) .

وشرحه في الحقبة الإسلامية كل من:

المسيحي: أبي بشر متى بن يونس القنائي (ت: 328 هـ/940 م)، وتلميذه: أبي نصر محمد الفارابي (260 هـ/874 م - 339 هـ/950 م) (صورة متخيلة له) ، وأبي علي: الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا (370 هـ/980 م - 428 هـ/1037 م) (صورة متخيلة له) {في كتاب: المنطق من "الشفا"}، وابي الوليد: محمد بن أحمد بن محمد بن رشد

الأندلسي الحفيد (520 هـ/1126 م - 595 هـ/1198 م) (صورة متخيلة له) وغيرهم، قبل أن يجد طريقه إلى أصول الفقه بعد القرن السادس الهجري، تحت تأثير كل من:

أ) أبي حامد الغزالي، الذي أباح في كتابه"المنقذ !!!!من الضلال" {قلت: بل هو كتاب موصل إلى الضلال من أقصر طريق}، الاشتغال بالمنطق اليوناني:

لما فيه من المزايا!! ولكونه لا يتعلق بشيء من الدين نفياً وإثباتاً!!!!.

وقال عنه أيضاً بأنه:

معيار العلوم، وأن من لا معرفة له بالمنطق، لا ثقة بعلمه!!!.

قلت:

المنطق الذي لم يعصم الغزالي نفسه من الشطح!! {أنظر على موقعنا:

"شطحات لفقهاء بضاعتهم في الحديث النبوي الشريف بضاعة مزجاة أبو حامد الغزالي والمهدي بن تومرت

الموحدي}، لتعلق هذا المنطق بتصاريف لغة يونان وهي خاصة بهم وليست كونية، ولكونه في لبه وأسه لا يزيد أن يعنى بالتصنيف والترتيب، من بين مئات الطرق الأخرى الممكنة!

ب) وابن رشد الحفيد، الذي نوه به في كتابه: "فصل المقال" وقال بأنه:

مما ينبغي تحصيله، لأنه يعين على إثبات!!!! وجود الله!!!!!

قلت:

وناهيك به من فهم عقيم للإسلام من طرف القاضي!!!، حيث يتوخى إثبات وجود الله بآلة سفسطية، يمكن أن تستعمل من طرف إيديولوجي آخر لنفي وجوده!

وقد أخرس الإمام ابن تيمية هذا الرهط من الذبابيين المتعالمين بأفكار الإغريق، وفند كل ادعاءاتهم بما ليس عليه مزيد في كتابه: "نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان".

ف ابن تيمية، وعلى خلاف الفهم السطحي لأبي حامد الغزالي، الذي ذهب يفرق بين منطق أرسطو وإلهياته، فجعل الأول معيارا للعلم!! وأيد استعماله، وهاجم الأخيرة لتعارضها مع مبادئ الإسلام، أدرك الصلة الوثيقة بين منطق أرسطو وإلهياته، وأثبت أن كثيراً مما يذكرونه في المنطق هو أصل فساد قولهم في الآلهيات وأن خصائص العقلية اليونانية التي يسيطر عليها الطابع النظري في التفكير، تباين في المطلق التفكير الإسلامي القائم على المنطق المادي والمجربات.

لذلك وجدناه يهاجم ويفند كل تخرصاتهم في الكليات، والماهيات وسائر التصورات، وكذلك مباحث الحد، والقضايا، والاستدلال عند أرسطو، ....

قلت:

وتظهر أصالة وعبقرية ابن تيمية، وتقدمه على أهل عصره، على الصعيد المنهجي بوضوح أيضاً، إذ خلافاً لهذه الشلة من الذبابيين المقتاتين على موائد الغير، دون فهمها!، فهو لم يكتف بنقد المنطق الأرسطي وبيان عواره الداخلي، بل استخلص منطقاً يعبر عن العقلية الإسلامية، فاتحاً بذلك الباب شرعا لاتجاهات جديدة في المنطق مباينة تماماً لمنطق أرسطو.

وهو ما سيتنكب المسلمون مع الأسف عن الإفادة منه، لغلبة الشنآن والحسد عليهم، وتمكن الانحطاط منهم، وليتلقفه الغرب، وهو في الطريق إلى بناء نهضته وإقلاعته، كما نجد عند كل من:

1) فرانسيس بيكون (*Francis Bacon*) (1561 - 1628) في كتابه المنشور سنة 1620 م تحت العنوان الرئيسي باللغة اللاتينية: "إعادة بناء العلوم" (*L'Instauratio Magna Scientiarium*) من مجلدين، خصص المجلد الثاني ل "الآلة الجديدة" أو "الأورجانون الجديد، طريقة لقيادة الفكر والتقدم في العلوم" (*Novum Organum*)، كمقابل ضدي ل "أورجانون أرسطو" القديم، المعطل للعقل، والعقيم في مجال العلوم، لكون كل قضاياه هي من نوعية تحصيلات الحواصل التي لا تأتي بجديد.

2) وجون ستيوارت ميل (*John Stewart Mill*) (1806 - 1873) 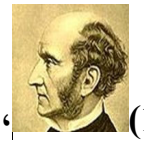 ، في "نظام المنطق" (*A System of Logic*)،

3) و برتراند راسل (*Bertrand Russel*) (1872 - 1970) في منطقه الرياضي،

4) والفرنسي فيكتور كوزان (*Victor Cousin*) (1782 - 1867) في المنطق السيكولوجي،

5) وعند المناطقة الوضعانيين أمثال:

أ) رودولف كارناب (*Rudolf Carnap*) (1891 - 1970) ،

ب) ولودفيخ ويتجنشتين (*Ludwig Wittgenstein*) (1889 - 1970) ،

ت) وجوتلوب فريج (*Gottlob Frege*) (1884 - 1925) ،

ث) والمنطقي الأمريكي الجنسية، النمساوي الأصل: "كورت غودل" (*Kurt Gödel*) (1906 - 1078) 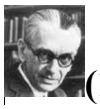 ، صاحب "قانون عدم الاكتمال" الذي يقول بأن:

أي نظام منطقي قوي بما فيه الكفاية لوصف الأعداد الصحيحة يحتوي على قضايا في الأعداد الصحيحة لا يمكن لا نفيها ولا إثباتها اعتماداً على مسلمات النظرية.

ج) والمنطقي الأمريكي الجنسية البولوني الأصل: "ألفريد تارسكي" (*Alfred Tarski*) (1902 - 1983 م) ، الذي بين في مقالة له تحت عنوان: "المفهوم الدلالي للصدق وأسس الدلالات" (*The Semantic conception of Truth and the Foundation of Semantics*) [7] أن:

مفهوم: "الصدق" في قضايا لغة شكلية وغنية بما فيه الكفاية، لا يمكن تعريفها داخل هذه اللغة، وإنما في لغة شارحة: "ميتالغة" (*Métalangage*) خارجية.

وغيرهم.

قلت:

والمحصلة النهائية التي انتهى إليها المتخصصون في المنطق في عصرنا الحالي، وهو تخصص لا يمثل سوى 5 % من حقل الرياضيات في عصرنا، هو أن:

كل قضايا المنطق لا تخرج عن كونها تحصيلات حواصل، لا تكتشف جديداً لم يكن

لذلك، تعجب أن يستمر تدريس هذه المقدمات من المنطق الأرسطي الأحفوري الكسيح لطلبة الأزهر في العصر الحاضر، بالدعوى المبتذلة والخاطئة لذبابيين من شاكلة: أبي حامد الغزالي وابن رشد الحفيد: الذين طوحا بجهل: بكون هذا المنطق يعصم المجتهد من الخطأ، بينما هو مطية مُثلى للوقوع في الخطأ من أقصر طريق، كما أثبت الواقع، وكما سبق وأن تنبه لذلك ابن تيمية رحمه الله، ومنذ نهاية القرن السابع الهجري، ووافقه فيما ذهب إليه كل المناطقة الغربيين الذين جاءوا بعده.

---

[7] نشرت في مجلة: "الفلسفة والظاهريات المنطقية" (*Philosophy and Phenomenological Research; 4, 1944, pp. 341 - 378*)

ومن هنا نتبين فداحة ما أقدم عليه الأفغاني وتلميذه عبده والتلاميذ، حين تنكبوا عن اقتفاء ابن تيمية فيما توصل إليه من نتائج، وأعادوا إحياء هذا الغثاء الفكري الدخيل على المرجعية والمغبش على الرؤية السليمة للعالم، وهم يحسبون لجهلهم، أنهم بذلك يحسنون صنعا!.

وهو ضلال ما بعده ضلال وجناية على الأجيال ما بعدها جناية!

قلت:

والمتن المتداول بكثرة في العالم الإسلامي لكتاب الإسياغوجي هو متن الفلكي، والرياضياتي، والمنطقي: المفضل بن عمر بن المفضل الأبهري السمرقندي، ثم الجزري، نسبة إلى جزيرة العراق (ت: 663 هـ/1264 م).

وله شرح عليه سماه: "قال أقول"، ثم وضع حاشية على هذا الشرح سماها: "مغني الطلاب في المنطق".

ولا يحصى كثرة عدد من شرحوا هذا المتن وحشوه منذ تأليفه وإلى عصر محمد عبده!.

ومن بين من شرحوه:"شيخ إسلام!!! وقته!!!": زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري (823 هـ - 906 هـ) وسمى شرحه: "المطلع" فرغ منه سنة 875 هـ.

ومن بين من حشوا "المطلع": الشيخ حسن العطار (ت: 1250 هـ) شيخ رفاعة رافع الطهطاوي، وفرغ منه سنة 1236 هـ، وطبعته المطبعة العثمانية سنة 1311 هـ.

قلت:

ويعد فورفوريسوس الذي افتتح مشائية تلفيقية جديدة في القرن الثالث الميلادي واستمرت بعده في مدرسة الإسكندرية خاصة لثلاثة قرون، نموذجا للذبابية الملفقة بامتياز، حيث أن منهجه يقوم على الخلط والجمع بين المدارس الفلسفية المختلفة والمتناقضة في أفكارها، ليجعل منها فكراً لاماً متداخلاً واحدا، يصعب استنقاذ واسترجاع أصوله بعد هذا الشفط السالب الذبابي {الحج، الآية 73}:

[illegible] (73) [illegible]

كما فعل بالنسبة لفلسفتي: أرسطو وأفلاطون، التي سيكررها من بعده ذبابيون آخرون محسوبين على الإسلام.

هذه المدرسة الإسكندرانية الملفقة للتراثية الفلسفية الإغريقية ستجد طريقها إلى الساحة الثقافية الإسلامية، عندما نقلت رسائلها المؤلفة باللغة السريانية إلى اللغة العربية إبان الحكم العباسي، ليتلقف منهجها التلفيقي كلازمة، المتفلسفة الذبابيون المحسوبين على الإسلام، يصلون بذلك ما انقطع من تراث أجدادهم الوثنيين بعد قدوم الإسلام، كما سيفعل الذبابي: أبو نصر محمد الفارابي (ت: 950 م) في محاولته التوفيق بين الفيلسوفين: أرسطو وأفلاطون، من خلال نصوص وردت في تساعيات أفلوطين (التساعيات: الرابعة، والخامسة، السادسة) ونسبت خطأ إلى أرسطو وعرفت ب "لاهوت أرسطو"!.

قلت:

وطاهر أن إلى زمن عبده، مع مطلع القرن العشرين، لم يعد للفقهاء من قدرة في التعامل مع الأصول، سوى من خلال النظارات المنطقية لفلاسفة الإغريق الناظرين إلى الأشياء بعيون الأفلاطونية المحدثة.

ودرس عبده:

ت) الأدب على الشيخ محمد البسيوني،

ث) وأخذ المنطق والفلسفة على الشيخ حسن الطويل، والأخيران كانا ممثلان بالأزهر لشيخ الطريقة الخلوتية: حسن رضوان الحسيني الخالدي (ت: 1892 م)، صاحب منظومة: "روض القلوب المستطاب".

ج) وقرأ في الأصول: "التوضيح في حل غوامض!! التنقيح". و"النقيح" مختصر لكتاب: "تنقيح الأصول"، وكلاهما لصدر الشريعة الأصغر: عبيد الله بن مسعود، بن تاج الشريعة محمد، بن صدر الشريعة أحمد بن جمال الدين عبيد الله المحبوبي البخاري الحنفي (ت: 747 هـ)،

ح) و"التلويح في كشف!!! حقائق!!!! التنقيح" لسعد الدين: مسعود بن عمر بن عبد الله التفتزاني الهروي الشافعي الخراساني (722 هـ - 793 هـ)، وهو شرح على تنقيح صدر الشريعة الأصغر.

وسيصاب مجددا بأزمة أخرى في رحاب الأزهر ستذهب بالبقية الباقية من عزيمته، حيث أن الدروس التي كانت تلقى في رحابه، كانت جافة ومتكلسة وتركز بدرجة خاصة على الفقه واللغة، وتهمل ما عداهما، ومن بينها نصوص الأصلين: القرآن والسنة![8]

وسيقول لاحقاً عن دروسه بالأزهر بأنها:

كانت عبارة عن حشو لأدمغة الطلبة بشذرات من المعارف النحوية المتضاربة والألغاز الفقهية التي تعمل على تضييق الفكر وتمنعه من التطور.

وعلى غرار ما حصل له للخروج من أزمته النفسية بالجامع الأحمدي بطانطا، من خلال التعلق بشيخ مرشد، فسيستنجد بالأزهر بشيخيه: حسن الطويل ومحمود البسيوني.

وكان عبده قد تسامع من بعض السوريين المجاورين بالأزهر بقدوم الأفغاني إلى مصر، عندما نزل الأخير بمصر للمرة الأولى وأقام في خان الخليلي مدة أربعين يوماً ابتدأت من شهر تموز 1869 م، وهو في طريقه إلى إسطنبول بعد طرده من ألهند من طرف الإنجليز. وكان السوريون يحضرون عنده يسمعون منه شرح كتاب: "الإظهار" وهو كتاب في النحو.

وهو الأمر الذي حث عبده صحبة شيخه حسن الطويل على التعرف على جمال الدين الأفغاني، فوجداه يتعشى فسألهما عن بعض الآيات القرآنية وما قال المفسرون فيها، ثم شرع يفسرها لهما بما لم يزودا. وهو ما نال إعجابهما!.

وسيلازم عبده مجلس الإفغاني عندما حل بمصر ثانية سنة 1286 هـ/ 1871 م، بدعوة رسمية من ناظر النظار رياض باشا، الذي لم ير فيه من خطر على النظام المصري، ومنحه راتباً ومنزلاً بحي الأزهر، بعد أن تعذر على الأفغاني المكوث بإسطنبول بعد محاضرة ألقاها في: "دار الفنون" في شهر رمضان سنة 1287 هـ/1870 م، حول: "العلم والدين" قال فيها: بأن:

النبوة صناعة مكتسبة!!!!!!!

وقارن فيها بين النبوة والفلسفة ورجح الأخيرة على الأولى!!!! بدعوى أنها تعنى ب الكليات!! دون الجزئيات وبكونها صالحة لكل عصر، على ما كان يتبنى الكثير من مخرفة المتفلسفة المحسوبين على الإسلام! بل قارب القول بما كان يقول به أستاذيه الذبابيين: الفارابي وابن سينا، بقدم العالم تابعين لأرسطو في ذلك وليس لمحكمات نصوص القرآن، وهو ما يحكم بكفرهما من دون لبس، عندما شبه في محاضرته، التاريخ الإنساني والكوني بالتطور البيولوجي الذي يقول به الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر (*Herbert Spencer*) (1820 - 1903) .

قلت:

[8] اليس من غرابة الأطوار أن يتعلم الأزهري كل هذه الغثائيات من المعارف، ويحجب عنه الأصلين ؟

الشاهد على هذه الدهرية المتخفية، على خلاف ما سيورده تسع سنوات من بعد، في كتابه: "الرد على الدهريين"، الذي سيؤلفه أثناء مقامه بحيدر آباد سنة 1296 هـ/1879 م، قول رشيد رضا ، تلميذ عبده في الأفغاني:

وكلامه في النشوء والترقي يشبه كلام داروين[9]

وهو ما أضغن عليه شيخ الإسلام: حسن أفندي فهمي، الذي كان أول من رحب به عند قدومه إلى إسطنبول، فألب عليه الوعاظ وأئمة المساجد، إلى أن ألف الشيخ: "خليل فوزي الفيليباوي" كتاباً باللغة العربية حمل عنوان: "السيوف القواطع للرد على عقيدة الأفغاني"، ترجم إلى اللغة التركية، وهو ما اضطر الحكومة إلى إصدار أمر يطالبه بمغادرة تركيا.

وتهمة شيخ الإسلام يؤيدها احد مريدي الأفغاني وهو: النصراني اللبناني: سليم الغنجوري بقوله[10]:

أرتجل خطبة في الصناعات غالى فيها إلى حد أن أدمج النبوة في عداد الصناعات المعنوية فشغب عليه طلبة العلم وشدت عليه صحيفة: "النكير".

قلت:

وما أن استقر به المقام في حي اليهود بالقاهرة، حتى شرع في إلقاء دروس في الأزهر.

ثم حصل أن ناظره أحد علماء الأزهر فانتهت المناظرة إلى منافرة.

وهو ما دفع الأفغاني إلى ترك الأزهر وتحويل بيته إلى منتدى يلقي فيه دروساً بالنهار يؤمها ملازموه ومريدوه وقلة من العلماء، ومن بينهم عبده، واتخذ له مجلساً آخر بمقهى قرب حديقة الأزبكية ينتظم ليلاً، يؤمه الكتاب، والأدباء، والشعراء، والسياسيون من مصريين، وشوام، ولبنانيين، من المقيمين بمصر يومها.

وسيشجع الأفغاني، وهو معروف بماسونيته، هؤلاء الشوام واللبنانيين المعروفين بماسونيتهم، على تأسيس جرائد سيكون لها أثر كبير على الساحة الثقافية المصرية.

من بين هؤلاء:

4) الطبيب المسيحي اللبناني، المتأثر بالتطورية الداروينية والفكر المادي الأوربي الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر: شبلي شميل (1860 م - 1917 م)، الذي نال الدكتوراه بأطروحة حملت عنوان: تأثر الإنسان والحيوان بالمناخ والطبيعة والبيئة". وسيترجم إلى العربية: "شرح بوخنر على مذهب داروين"، ويؤلف كتاب: "فلسفة النشوء والارتقاء". ولذبابيته، على معهود الشرقيين المبتعثين إلى أوروبا للدراسة خلال هذه الحقبة التاريخية، فقد تأثر بآراء بوخنر الاشتراكية والاجتماعية، التي لا تختلف في صلبها عن أراء الفيلسوف التطوري الإنجليزي هربرت سبنسر (1830 م - 1903 م) 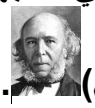 . ومن

[9] أنظر: محمد عمارة: "تاريخ الأستاذ الإمام !" (1: 79).
[10] أنظر: محمد عمارة: "تاريخ الأستاذ الإمام !" (1: 44).

هنا، فلا غرابة أن يرى شميل في الدين عائقاً يحول بين العرب وبلوغهم مستوى الأوروبيين.

قلت:

وعندي أن شبلي شميل وصنوه "فرح أنطون" وغيرهما من مسيحيي الشرق المتمركسين، وقفا عن كثب على النقديات الكاسحة للكتب المقدسة من طرف النقاد الهيغليين الشباب الألمان أمثال:

أ) الناقد اللاهوتي الهيغلي الماركسي: دافيد فريدريش شتراس (1800 م - 1874 م) ، صاحب كتاب: "حياة يسوع" الصادر سنة 1835 م، الذي أحدث ضجة بكتابه وأقام الدنيا ولم يقعدها وحاربته الكنيسة من أجله،

ب) الناقد والفيليسوف الهيغلي: برونو باور (1809 م - 1888 م) في كتبه النقدية: "عرض نقدي لدين العهد القديم" الصادر سنة 1836 م، و"نقد الوقائع الموجودة في إنجيل القديس يوحنا" الصادر سنة 1840، و"نقد إجماليات التاريخ الإنجيلي"، الصادر سنة 1841 م، و"المسيحية مهتوكة الستر"، الصادر سنة 1843 م، و"نقد الأناجيل وتاريخ منابعها"، الصادر سني (1850 - 1851)، و"نقد رسائل القديس بولس"، الصادر سنة 1852 م،...

ت) واللآهوتي الهيغلي: فيرديناند كرستيان باور (1792 - 1860) 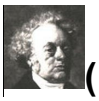 صاحب كتاب: "أبحاث نقدية حول الأناجيل الشرعية"، الصادر سنة 1847 م،.... وغير هؤلاء.

فكانت ردة فعلهم، الخروج من نصرانيتهم الموروثة والتحول إلى الماركسية، والتبشير بالأخيرة في أوطانهم، لكن دون ذكر الأسباب التي أدت إلى تركهم للنصرانية!

قلت:

وكان منتظرا من هؤلاء المتياسرين، لو كانوا منطقيين مع أنفسهم، أن يترجموا هذه التراثية النقدية إلى اللغة العربية، لينوروا!!! بها عقول طوائفهم، ماداموا يشتركون مع الغرب في هذه التراثية الاعتقادية، إلا أنهم، ولجبنهم التليد، لم يفعلوا!!!

5) النصراني الماسوني: أديب إسحاق، الذي انتظم في الماسونية منذ سنة 1873 م. وقد أوعز له الأفغاني بإصدار مجلة أسبوعية سيطلق عليها الأخير اسم جريدة: "مصر"، لتكون لسان حال حزب الأفغاني ومنبراً لأقلام أنصاره ومؤيديه. وسيصدرها أديب إسحاق سنة 1877 م، ثم ينقلها بعد سنة إلى الإسكندرية.

وأوعز الأفغاني إلى أديب إسحاق و سليم النقاش بإصدار جريدة "التجارة" في الإسكندرية سنة 1877 م. وسيكتب الأفغاني في الجريدتين سواء باسمه الصريح تارة وباسم مستعار: مظهر بن وضاح تارة أخرى، إلا ليوقفهما رياض باشا سنة 1880 م.
وسيسافر أديب إسحاق إلى فرنسا بعد هذا التوقيف ليصدر جريدة ظلت تطعن في حكومة رياض باشا.

6) اليهودي الماسوني والمسرحي: يعقوب روفائيل صنوع (1839 م - 1912 م)، الذي سيصدر سنة 1877 م الجريدة التهكمية "أبو نضارة" التي لن تروق خديو مصر: إسماعيل، فيأمره بمغادرة البلاد. وسيصدر جريدته من باريس متهجما على الخديو إلى أن تم خلع الأخير من طرف الإنجليز.

7) والنصراني الماسوني: سليم خليل النقاش، الذي كان قد انتقل إلى **الإسكندرية** بفرقته المسرحية التي أسسها في بيروت سنة 1876 م، بناء على اتفاق مع الحكومة المصرية التي أنشأت داراً للأوبرا في القاهرة، مقلدة ببغائية لأوروبا. وسيصدر النقاش سنة 1880 م جريدة: "المحروسة" التي كانت تصدر خمس مرات في الأسبوع في أربع صفحات،

8) و والنصراني اللبناني الماسوني: سليم العنجوري، الذي سيساعده الأفغاني في إنشاء جريدة: "مرآة الشرق"، إلا ليعزله الأفغاني بعد فترة وجيزة ويسندها إلى **إبراهيم اللقاني**،

9) والقبطي المصري : ميخائيل أفندي عبد السيد، الذي سيوعز له الأفغاني بإصدار صحيفة: "الوطن"، التي سترى النور صبيحة 17 نوفمبر سنة 1877 م. وهي أولى الصحف التي سيصدرها أحد الأقباط.

وغيرهم.

ومنه تظهر بوضوح اليد الخفية ل الماسونية التي كانت تقف بكل ثقلها وراء مشاريع الأفغاني وتدعمها بالمال الكافي.

هذا بالإضافة إلى الأموال التي كان يحصل عليها من الحوزات الشيعية، حيث لم تكن عنده مشكلة في تمويل أسفاره وإقاماته في شتى البلدان الأوروبية.

ثم، لا ننسى أن الأفغاني كان مسموع الكلمة عند مفتي إيران الجعفري، الذي ما كان لينصاع سوى لجعفري مثله، وليس لسني مهما بلغ شأن الأخير أو علت مرتبته.

وهذا دليل قاطع على تشيعه، إلى درجة انه تمكن من اغتيال شاه إيران: ناصر الدين شاه قاجار (1210 هـ/1831 م - 1275 هـ/ 1896 م) ، بالإيعاز إلى قاتله: ميرزا رضا الكرماني، فامتثل الأخير وأطلق عليه رصاصات من مسدسه أردته قتيلاً.

قلت:

وسيلازم عبده شيخه الأفغاني الجعفري كمريد لمدة خمس عشرة سنة (1872 - 1886).

الملازمة التي مكنت عبده من الخروج من أزمته النفسية التي حلت به ب الأزهر، بعد أن قرأ على الأفغاني كتاب: "الإشارات" لابن سينا بشرح الطوسي، وهو ما سيمكنه لاحقاً من إخراج أول مؤلفاته في التصوف سنة 1874 وهو كتاب: "الواردات".

وقد شجعه الأفغاني:

أ) على الاشتغال بالفلسفة، وعلم الكلام، وهما حقلان معرفيان شقشقيان ضررهما أكثر من نفعها، وسيكونان سبباً مباشراً في إجهاض النهضة.

ب) وعلى الاشتغال بالتاريخ، ليصدر عبده أول سلسلة مقالات له حول الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي في جريدة "الأهرام" سنة 1876.

يقول عبده عن شيخه الأفغاني:

أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمي إلا بنوع من الإشارة إليها.
لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها كأن، كل معنى قد خلق له وله قوة في حل ما يعضل منها كانه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها...

ويضيف:

وله لسان في الجدل وحذق في صناعة الحجة لا يلحقه فيه أحد!

قلت:

وهي أوصاف لا تخطئك النبأ بأنك بإزاء سفسطي بارع على النمط القديم لمتسفسطة اليونان.

ومن الكتب المكملة التي درسها عبده على جمال الدين الأفغاني:

خ) "الزوراء والتعليقات عليه في تحقيق المبدأ والمعاد" للقاضي جلال الدين: محمد بن أسعد الصديقي الدواني (نسبة إلى دوان من إقليم كازرون بفارس) (830 هـ - 907 هـ أو 918 هـ) في التصوف،

د) وشرح القطب للشمسية: وهو اختصار لكتاب: "تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية" ألفه: قطب الدين: محمد بن محمد الرازي البويهي (ت: 766 هـ)، تلميذ الشيعي الإمامي الجعفري: جمال الدين، أبي منصور: الحسن بن يوسف بن علي بن مُطهر الحلي، المعروف ب العلامة (684 هـ - 726 هـ).

قلت:

وقد خصص ابن تيمية رحمه الله كتاب: "منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية" للرد على ابن المطهر الحلي هذا ناقدا لما أورد الأخير في كتابه: "منهاج الكرامة في الإمامة!!!!"

فإذا ما علمت بأن لا خبر يصح في الإمامة عند أهل السنة والجماعة {أنظر على موقعنا: "أخبار في السياسة لا تصح: الأئمة من قريش"، و" أخبار في السياسة لا تصح: خلافة النبوة"، وبأن أخبار الشيعة بالذات أوهى من خيوط العنكبوت وكلها متضاربة، على ما حقق شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي (385 هـ - 460 هـ) في مقدمة كتابه: "تهذيب الأحكام"، أحد الأصول الأربعة للشيعة الجعفرية {أنظر على موقعنا: "الأصولية الجعفرية والاجتهاد المؤطر بالأسطورة الجهنمية"} ، أدركت بلاهة عبده وهو يتلقى من شيخه الأفغاني مثل هذه الدروس الملغومة!، دون أن يُسائله فيها !

وقد ألف القطب شرح القطبية وأهداه للوزير: غياث الدين محمد بن خواجة رشيد من وزراء السلطان خدابنده البويهي. و"الشمسية" هي: اختصار ل "الرسالة الشمسية في القواعد

المنطقية" وهو متن مختصر في المنطق ألفه نجم الدين أبو الحسين، علي بن عمر القزويني الكاتبي، المعروف بديران (600 هـ/1203 م - 657 هـ/1276 م)، تلميذ الفلكي والرياضياتي الجعفري الفارسي الشهير: أبي جعفر: نصير الدين، محمد بن محمد بن الحسن الطوسي (597 هـ/1201 م - 672 هـ/1274 م).

قلت:

والطوسي سيخصه ابن القيم الجوزية بنقد شديد في كتابه: "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان" بقوله:

ولما انتهت النوبة إلى وزير الشرك والكفر الملحد وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو شفا نفسه من أتباع الرسول الكريم وأهل دينه، فعرضهم على السيف حتى شفا إخوانه من الملاحدة،.....

وكان قطب الدين هذا قد انتقل من الري إلى دمشق ووقعت منازعة في دمشق بينه وبين تقي الدين السبكي الشافعي في العلوم والرسوم معاً.

ذ) و"التذكرة في علم الهيئة" لنصير الدين الطوسي: وهو كتاب في علم الفلك عرض فيه الطوسي لنقد "كتاب المجسطي" لبطليموس واقترح نظاما جديدا أيسر منه.

قلت:

وسيتخرج عبده من الأزهر سنة 1877 بعد أن حصل على العالمية.

العالمية، التي مكنته من تدريس: المنطق، وقد عمل فيه شرحاً على: "البصائر النصيرية في المنطق" للقاضي زين الدين: عمر بن سهلان الساوي (ت: 540 هـ)، والفلسفة، وبعض العلوم المتكلسة والمتجاوزة الأخرى في الرواق العباسي بالأزهر، وإلقاء دروس في التاريخ ب "دار العلوم"، و"الآداب" ب مدرسة الألسن.

قلت:

لاحظ من خلال ما تخصص في تدريسه، أن لا علاقة لكل هذه الحقول البهرج بالشريعة بوجه من الوجوه!!!!

وسيتم طرد الأفغاني من مصر سنة 1879 م لينتقل إلى باريس. وسيلحق به عبده لاحقاً بعد أن نفي بدوره إلى لبنان، للعمل معه في نشر مجلة: "العروة الوثقى"، إلا لتختلف رؤاهما فيما بعد حيث يقول عبده:

إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار، وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة، وأن نذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات فنعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا، فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ، الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فقال:

أنت مثبط!!!!!

قلت:

لاشك أن القارئ قد تنبه، من خلال ما استعرضنا من السيرة العلمية ل عبده، إلى التأثير الطاغي الذي كان لـ**لأفغاني** عليه، من خلال ما درس عليه، حتى أمكن الجزم دون خلف بأنه هو من زوده بالقسط الأكبر من معارفه، وتمكن من خلال إرشاده وتوجيهه من تشكيل وقولبة شخصيته، ومده بمنظوره إلى العالم والوجود.

والأفغاني، من خلال ما استعرضنا من الأصول التي درسها لـ**عبده**، حوزي التكوين بلا جدال، وينتمي إلى الحزب الأصولي المتفلسف من الجعفرية الإمامية الشيعية {أنظر على موقعنا: "الأصولية الجعفرية والاجتهاد المؤطر بالأسطورة الجهنمية"} ، الذي يتميز منهجه بميزتين لا يشاركهم فيهما حزب من الأحزاب الإسلامية وهما:

أ) إهمال القرآن الكريم وكل ما يتصل به من علوم، لكونهم جميعهم إخباريوهم وأصوليوهم كانوا مطبقين على القول بتحريف القرآن الكريم، كما حقق ذلك أحد مبرزيهم، وهو الميرزا: حسين بن محمد تقي بن علي محمد بن تقي النوري الطبرسي (1254 هـ - 1320) في كتابه: "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب ري الأرباب" ، لا يشذ منهم شاذ، إلى درجة أن أربعة منهم فقط، ممن شاع عنهم القول بغير ذلك، أثبت الميرزا: بأنهم لم يقولوا بذلك سوى تقية!.

وانظر لتتأكد من إهمال القرآن وعلومه في الحوزة، ما يقوله بهذا الصدد: آية الله محمد اليعقوبي ، تحت عنوان: "الحياة في كنف القرآن: مسؤولية الحوزة في إعادة القرآن" على موقعه {*http:// yaqobi.com/Arabic/book*}.

ب) إهمال الحديث النبوي الشريف، من طرف أصولييهم خاصة، لكون كل الأخبار المتداولة عندهم متضاربة ومتعارضة، على ما قرر شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي (385 هـ - 460 هـ) في مقدمة كتاب: "تهذيب الأحكام"، أحد أصولهم الأربعة.

وهم، في هذا المنحى يعارضون فريق الإخبارية منهم الذين يتبنون كل ما ورد من أخبار في كتبهم.

لذلك لم يكن غريباً:

1) أن لا نعثر على أثر للسنة فيما درس عبده سواء بالأزهر أو بمعية الأفغاني { وموقف الأخير من السنة لا يخرج عن موقف الأصوليين من الجعفرية}،

2) أن يقفو عبده، وهو لا يدري، حذو القدة بالقدة، منهج الأصوليين الشيعة بالحوزة، الذين يركزون على:

أ) اللغة، من نحو، وصرف، وبلاغة (ولعبده: "شرح نهج البلاغة (المنسوب زوراً وبهتانا) لعلي بن أبطالب"، وتحقيق وشرح "دلائل الإعجاز في علم المعاني" و"أسرار البلاغة في علم البيان" وكلاهما للنحوي: أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت: 471 هـ)،

ب) والفقه،

ت) والعقيدة (ولعبده فيها كتاب: "التوحيد"، و"الرد على (وزير الخارجية الفرنسي) هانوتو

الفرنسي" (*Gabriel Albert August Hanoteaux*) (1853 م - 1944 م)، و"الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية" يرد فيه على الكاتب، والفقهلغوي، والفيلسوف، والمؤرخ العنصري الفرنسي إرنست رينان (*Ernest Renan*) (1823 - 1892)

)، وفي رده على اللبناني الملحد المتمركس: فرح أنطون,

ث) وأصول الفقه،

ج) والفلسفة،

ح) وعلم الكلام،

خ) والتصوف (وله فيه كتاب: "الواردات")،

د) والمنطق (وله فيه تحقيق وشرح: "البصائر النصيرية للطوسي").

قلت:

والشاهد على هذا المنحى الحوزي الأصولي الذي بصمه به الأفغاني: أنه وردت عليه رسالة من الهند يستفتيه فيها صاحبها في أمر السنة ومحلها من الإعراب فيأتيه جوابه العيي:

ما قيمة سند لا أعرف بنفسي!!!! رجاله، ولا أحوالهم!!!!، ولا مكانهم من الثقة والضبط!!!!، وإنما هي أسماء تتلقفها المشايخ!!!! بأوصاف نقلدهم!!!! فيها، ولا سبيل لنا!!!! إلى البحث فيما يقولون!!!!![11]

وهو عي ما فوقه عي، ولا يصدر سوى من جاهل، خصوصاً:

أ) وان تراجم الرواة معروفة لأصحاب الحقل،

ب) وكون الكثير من العلوم الشرعية، ومنها الفتوى، تتأسس فوق الحديث، المصدر الثاني للإسلام، ولا فكاك!، وأن من جهل ب السنة، كان لما سواها من العلوم الخادمة لها أجهل، حال عبده هنا وكل مشايخ الأزهر من بعده وإلى يوم الناس هذا!!!

وقد جرت السنة والأعراف المرعية في الإسلام، ألا يعتد بقول من هذا مبلغه من العلم.

هذا القصور في تمثل المرجعية، من خلال ما راكم من معارف فقهية ولغوية متجاوزة، ومنطق إغريقي كسيح، وفلسفة تلفيقية بهرج، وتصوف مبلد للقرائح والأفهام، مع الجهل المطلق بعلوم الحديث النبوي الشريف، المصحوب فوق هذا وذاك، بالتخلف عن مواكبة العصر وتحسس نبضه، سينسحب بالنقض على كل إنتاج الشيخ محمد عبده، وخصوصاً على ما سطر في تفسيره "تفسير المنار"، الذي ليس له من التفسير سوى الاسم {أنظر على سبيل المثال لا الحصر أقواله بخصوص: "الطير الأبابيل"، و"الحجارة من سجيل"} أو في "فتاواه"، التي هي تخرصات حرة، عارية من أي سند نصي، مما يدرجها في باب: الحطابة الليلية، و"الجرأة على الفتوى خارج الاختصاص"!!.

ولا يخفى أن سبب تعيين الخديو: عباس حلمي الثاني (1874 م - 1944 م)، الذي حكم مصر خلال الفترة (1892 م - 1914 م)، للشيخ عبده في منصب "الإفتاء"، بداية صيف سنة 1317 هـ/1899 م، فاصلاً للمنصب لأول مرة عن مشيخة الأزهر، لم يكن سوى بغرض إضعاف السلطة المعنوية التي كان يحظى بها شيوخ الأزهر التقليديون لدى العامة، حيث أن الإفتاء ظل تابعاً لشيخ الأزهر منذ إحداث هذا المنصب سنة 1690 م، وشغله لأول مرة: الشيخ محمد بن عبد الله الخرشي المالكي.

التقويض الذي سيساهم فيه عبده بقسط وافر وبحماس زائد!، لكراهيته الشخصية الدفينة لهم، لما تجرعه على أيديهم وكابد خلال دراسته على أيديهم، وخدمة لسياسة الخديو إسماعيل الظرفية[12]، كما سيحصل دوما مع كل من سيشغلون مثل هذه المناصب الدينية، مع حاكم وقتهم، وإلى يوم الناس هذا!.

---

[11] من رسالة إلى (ش، ي) "الأعمال الكاملة لمحمد عبده" (1: 183)، د، محمد عمارة.

[12] وستسوء العلاقة بينهما فيما بعد يوما عن يوم وإلى وفاته سنة 1905 م.

قلت:

وبما أن تصور عبده للخروج بالأمة من كبوتها، ما كانت لتخرج قيد أنملة عن وصفة شيخه الأفغاني، الخارج عن عصره بدوره، فلم يستغرب منه الاستغاثة بأموات ممن تعرف عليهم من خلال دروس الأخير، خارج العصر وما يطرح من تحديات، حال استغاثته بأفكار:

أ) الفيلسوفين: ابن سينا
Ibn Sina، وأبي علي احمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه الرازي

(932 م - 1030 م) ، وغيرهما من الذبابيين التاريخيين القدماء،

ب) وباجتماعيات ابن خلدون، كما وردت في كتاب الأخير: "المقدمة"، التي تجاوزها العصر،

ت) ونفحات من أفكار السياسي الفرنسي فرانسوى بيير جيوم غيزو (1787 - 1874)

(François Pierre Guillaume Guizot) التي بثها في مؤلفه: "التاريخ العام للحضارة في أوروبا" (*Histoire Générale de la Civilisation en Europe*).

وهو المؤلف الذي ألح الأفغاني على ترجمته إلى اللغة العربية تحت عنوان: "التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية"، الذي أخذ عبده على عاتقه، بتحفيز من الأفغاني، تدريسه لطلبة الأزهر بالرواق العباسي.

ث) مع محاولة يائسة وميئوسا منها لبعث الروح في الفكر المعتزلي المأزوم، والسلوك الطرقي المشئوم، مع أن هاتين التركتين التراثيتين الملغومتين كانتا من أسباب تأخر المسلمين وانحطاطهم، ومثلتا البلية والداء في العصور السابقة وفي كل عصر لاحق.

فكان حال الشيخ كالأعمى الذي حاول الاستجارة من الرمضاء بالنار!

قلت:

فمجرد مقارنة بسيطة بين الأفكار التي كان يروج لها الشيخ عبده متأثراً بشيخه الأفغاني، مع الأفكار التي كان لها رواج في الغرب في العصر الذي تواجدا فيه، تظهر بوضوح أنها، ليست فحسب متجاوزة

ومتخلفة، بل غير صالحة كبذور للنهوض بالأمة من كبوتها في المستقبل، بل فاسدة وعقيمة في المطلق ولا تبشر بثمار خير، على ما ستثبت سيرة التلاميذ من بعدهما.

انتهى وتليه الحلقة الثانية:

الولادة المجهضة لنهضة الشرق (فساد الثمار)